نظريّة تفسير القرآن بالقرآن

السيد كمال الحيدري*

حاول جملة من أعلام المفسّرين من الفريقين كالطبري والرازي والشيخ الطبرسي والشيخ الطوسي والعلّامة الطباطبائي أن ينتهجوا طريقاً آخر غير ما سلكه الآخرون، حيث اعتمدوا القرآن نفسه لتفسير القرآن؛ وذلك لما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام من أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، ويصدّق بعضه بعضاً، وينطق بعضه ببعض. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ القرآن ليُصدّق بعضه بعضاً فلا تكذّبوا بعضه ببعض». وقال أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام: «وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه... كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله».

هنا مقالة تضيء على نظريّة تفسير القرآن بالقرآن للعلّامة و المفكّر الإسلاميّ السيد كمال الحيدري، و هي مستلّة من كتابه «أصول التفسير و التأويل».

«شعائر»

لماذا يجب تفسير القرآن بالقرآن؟

لقد استُدلَّ لهذه النظرية بدليلين:

الدليل الأوّل: لكي يتّضح هذا الدليل لا بدّ من الإشارة إلى عدّة مقدّمات:

الأولى: إنّ القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنّه معجزة النبيّ الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصّلت:٤١-٤٢، والباطل نقيض الحقّ كما يقول الراغب في (المفردات)، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ..﴾ الحجّ:٦٢.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ..﴾: «وفيه وجوه:

- لا تكذّبه الكتب المتقدّمة كالتوراة والإنجيل والزبور، ولا يجيء كتاب من بعده يكذّبه.
- ما حكمَ القرآن بكونه حقّاً لا يصير باطلاً، وما حكم بكونه باطلاً لا يصير حقّاً.
- معناه أنّه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، والدليل عليه قوله ﴿.. وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الحجر:٩، فعلى هذا: الباطلُ هو الزيادة والنقصان.
- يُحتمل أن يكون المراد أنّه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معارضاً له ولم يوجد فيما تقدّم كتاب يصلح جعله معارضاً له». وقال الزمخشري: «هذا مثل كأنّ الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتّى يصل إليه ويتعلّق به».

أمّا قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿..تنزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيد﴾ فهو الدليل على عدم وصول الباطل ـ بأيّ طريقٍ ـ إلى القرآن. فالباطل قد يسري إلى الكلام الذي يصدر من الأفراد ذوي العلم المحدود والقدرات النسبيّة، أمّا الذي يتّصف بالعلم المطلق والحكمة المطلقة ويجمع كلّ الصفات الكماليّة التي تجعله أهلاً للحمد، فلا يطرأ على كلامه البطلان، ولا ينسخ أو ينقض أو تمتدّ إليه يد التحريف، ولا يتناقض كلامه مع الكتب السماويّة والحقائق السابقة، ولا يعارَض بالمكتشفات العلميّة الراهنة أو تلك التي يكشفها المستقبل. والحاصل فإنّ الآية واضحة الدلالة على نفي التحريف عن القرآن، سواء من جهة الزيادة أو النقصان، وهذا ما اتّفقت عليه كلمة المحقّقين من علماء المسلمين.

الثانية: إنّه لا يوجد بين مضامين القرآن الكريم أيّ اختلاف أصلاً. لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ النساء:٨٢. وهذا قياس

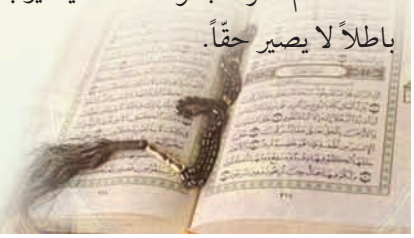

* مفكر إسلامي وأستاذ في الحوزة العلميّة بقم

استثنائيّ مؤدّاه: لو كان القرآن من عند غير الله لوُجد فيه اختلاف كثير، وحيث لا يوجد فيه ذلك، فهو من عند الله سبحانه. وجه الملازمة بين المقدّم والتالي أنّ غيره تعالى من الموجودات الواقعة في هذا النشأة، كلّها قائمة على أساس التحرّك والتكامل، وهذا قانون عام يجري في الإنسان أيضاً، فلا ترى واحداً من هذه الموجودات يبقى آنَيْن متواليين على حال واحد، بل لا يزال يختلف من حال إلى حال. أمّا دليل بطلان التالي وهو عدم وجود الاختلاف فيه فهو مستبطن في المقدّمة الأولى؛ إذ لو وجد الاختلاف لكان متضمّناً للباطل، والمفروض أنّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحاصل المستفاد من هذه الآية المباركة أمور:

١. إنّ القرآن ممّا يناله الفهم العادي. فلو لم يكن كذلك لما أمر سبحانه وتعالى الناس بالتدبّر والتأمّل فيه لمعرفة الحقّ، وإنّ التأمّل فيه يهدي صاحبه إلى كون القرآن من عند الله تعالى العليم بمصالح عباده الذي يهديهم بما يصلح أمرهم.

٢. إنّ القرآن الكريم كامل مكمّل من جميع الجهات، لا يقبل الاختلاف ولا التغيير ولا التحوّل والنسخ ولا الإبطال ولا التهذيب ولا التكميل، فلا حاكم عليه أبداً؛ لأنّ ذلك كلّه من شؤون الاختلاف. فإذا كان منفيّاً عنه بالكلّية، فلا يقبل القرآن أيّاً منها، ولازم ذلك أنّ الشريعة الإسلاميّة مستمرّة إلى يوم القيامة.

٣. إنّ هذا الكتاب لمّا كان كاملاً من كلّ جهة، لابدّ أن يكون نازلاً من عند الكامل المستجمِع لجميع صفات الكمال الذي لا يُتصوّر النقص فيه أبداً، وليس هو إلاّ الله سبحانه، لأنّ غيره تعالى سواء كان إنساناً أو ملكاً أو أيّ مخلوق آخر، قرين النقص والاختلاف، فلا يمكن أن يصدر منه ما ليس فيه اختلاف، وإنّ الكمال مهما بلغ من الشأن في المخلوق فهو محدود، والقرآن بعجائبه وغرائبه غير محدود، فهو المعجزة الخالدة، لذا عبّر عنه سيّد المرسلين ﷺ بقوله: «لا تُحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه».

الثالثة: مضافاً إلى ما ثبت من أنّ القرآن كتاب لا يأتيه الباطل وأنّه لم يقع فيه الاختلاف، هناك خصوصيّة ثالثة وهي أنّ آياته متشابهة، والتشابه هو توافق أشياء مختلفة واتّحادها في بعض الأوصاف والكيفيّات، وقد وصف الله سبحانه جميع القرآن بهذا الوصف حيث قال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ..﴾ الزمر:٢٣، والمراد كون آيات الكتاب ذات نَسَق واحد من حيث جزالة النظم، وإتقان الأسلوب، وبيان الحقائق والحكم، والهداية إلى صريح الحقّ، كما تدلّ عليه القيود المأخوذة في الآية. وهذا غير التشابه الذي في المتشابَه المقابل للمُحكَم، فإنّه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة للجميع.

وقوله: ﴿مثاني﴾ جمع مثنية بمعنى المعطوف؛ لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه إليه بتبيين بعضها وتفسير بعضها لبعض، من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً ويناقضه.

قال الرازي في ذيل هذه الآية: «إنّ كلّ ما فيه من الآيات والبيانات فإنّه يقوّي بعضها بعضاً ويؤكّد بعضها بعضاً».

ممّا تقدّم اتّضح أنّ القرآن كتاب:

- **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.**
- **لا اختلاف بين مضامينه أبداً.**
- **متشابه مثاني.**

وكتاب له مثل هذه الخصوصيات لا يمكن إلاّ أن يكون مفسِّراً لنفسه ومبيّناً لمعارفه دون حاجة إلى الغير، إذ لو احتاج إلى الغير للزم أن لا يكون التدبّر فيه موصلاً إلى أنّ هذا الكتاب منه تعالى. وهذا خلاف ما دلّ عليه قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ...﴾ محمد:٢٤، ولزم أن لا يكون القرآن أحسن الحديث يهدي به الله من يشاء من عباده إلاّ بمعونة الغير، والمفروض أنّه هو الدليل على صحّة نبوّة النبيّ الأكرم ﷺ.

الدليل الثاني: إنّ القرآن وصف نفسه بأنّه نور وأنّه هدىً وأنّه تبيان، فكيف يتصوّر كتاب له مثل هذه الأوصاف مفتقراً إلى هادٍ غيره ومستنيراً بنور غيره ومبيِّناً بأمر غيره؟

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره: «إنّ الطريق لفهم القرآن يمرّ من خلال منهجين:

أحدهما: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسألة من المسائل التي تتعرّض لها الآية حتّى نقف على الحقّ في المسألة ثمّ نأتي بالآية ونحملها عليه. وهذه طريقة يرتضيها البحث النظريّ، غير أنّ القرآن لا يرتضيها.

ثانيهما: أن نفسّر القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبّر المندوب إليه في القرآن نفسه، ونشخّص المصاديق ونتعرّفها بالخواصّ التي تعطيها الآيات كما قال تعالى: ﴿..وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ تِبْيَنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ..﴾ النحل:٨٩.

وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿..هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ..﴾ البقرة:١٨٥، وقال تعالى: ﴿.. قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَبٌ مُّبِينٌ﴾ المائدة:١٥، وكيف يكون القرآن هدى وتبياناً وفرقاناً

ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو أشدّ الاحتياج؟! وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ..﴾ العنكبوت:٦٩، وأيّ جهاد أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه؟! وأيّ سبيل أهدى إليه من القرآن؟!

ثمّ إنّ النبيّ ﷺ الذي علّمه القرآن وجعله معلّماً لكتابه كما يقول تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ..﴾ الشعراء:١٩٣ـ١٩٤، ويقول: ﴿.. وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ..﴾ النحل:٤٤ و﴿.. يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ..﴾ آل عمران:١٦٤، وعترته أهل بيته ـ الذين أقامهم النبيّ ﷺ هذا المقام ـ في الحديث المتّفق عليه بين الفريقين: (إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض)، وصدّقه الله تعالى في علمهم بالقرآن حيث قال عزّ من قائل: ﴿..إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ﴾ الأحزاب:٣٣، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة ٧٧ ـ ٧٩، وقد كانت طريقتهم في التعليم والتفسير هذه الطريقة بعينها على ما وصل إلينا من أخبارهم في التفسير. هذا هو الطريق المستقيم والصراط السويّ الذي سلكه معلّمو القرآن وهداته صلوات الله عليهم».

نماذج تطبيقية

١- إنّ عمر بن الخطّاب أُتي بامرأة وضعت لستّة أشهر فهمّ برجمها، فبلغ ذلك عليّاً فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه يسأله، فقال علي عليه السلام: ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ..﴾البقرة:٢٣٣، وقال: ﴿.. وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا ..﴾الأحقاف:١٥، فستّة أشهر حمله، وحولان تمام الرضاعة، لا حدّ عليها ولا رجم عليها. قال: فخلّى عنها.

٢- عن زُرقان (لعلّه محمّد بن عبد الله بن سفيان المعروف بزرقان الزيّات) صاحب ابن أبي داود قال: «رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتمّ، فقلت له في ذلك، فقال: وددتُ اليوم أنّي قد متُّ منذ عشرين سنة. قال: قلت له: ولِمَ ذاك؟ قال: لِما كان من أبي جعفر محمّد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين المعتصم. قال: قلتُ له: وكيف كان ذلك؟ قال: إنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أحضر محمّد بن علي، فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يُقطع؟ قال: فقلتُ من: الكُرسوع (وهو طرف الزند الذي يلي الخنصر). قال: وما الحجّة في ذلك؟ قال: قلت: لأنّ اليد هي الأصابع والكفّ إلى الكرسوع؛ لقول الله تعالى في التيمّم: ﴿..فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ..﴾ النساء:٤٣، واتّفق معي على ذلك قوم. وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق. قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأنّ الله لمّا قال: ﴿.. وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ..﴾المائدة:٦ في الغَسل، دلّ ذلك على أنّ حدّ اليد هو المرفق. قال: فالتفت إلى محمّد بن عليّ، فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلّم القوم فيه. قال: دعني ممّا تكلّموا به، أيّ شيء عندك؟ قال: إعفني عن هذا. قال: أقسمت عليك بالله لمّا أخبرت بما عندك فيه. فقال: أمّا إذا أقسمت عليَّ بالله إنّي أقول إنّهم أخطأوا فيه السُنّة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مَفصل أُصول الأصابع، فيُترك الكفّ. قال: وما الحجّة في ذلك؟ قال: قول رسول الله ﷺ: (السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين) فإذا قطعت يده من الكُرسوع أو المرفق لم يبقَ له يدٌ يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ..﴾ الجن:١٨، يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿..فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ الجن:١٨، وما كان لله لم يُقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ. قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنّيتُ أنّي لم أكُ حيّاً».

٣- عن زرارة ومحمّد بن مسلم أنّهما قالا: «قلنا لأبي جعفر الباقر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي؟ وكم هي؟ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ..﴾ النساء:١٠١، فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر. قالا: قلنا له: إنّما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ ولم يقل: افعلوا، فكيف أوجب ذلك؟ فقال عليه السلام: أوليس قد قال الله عزّ وجلّ في الصفا والمروة: ﴿.. فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ..﴾ البقرة:١٥٨، ألا ترون أنّ الطواف بهما واجبٌ مفروض لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه وصنعه نبيّه ﷺ، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبيّ ﷺ وذكره [الله] في كتابه».

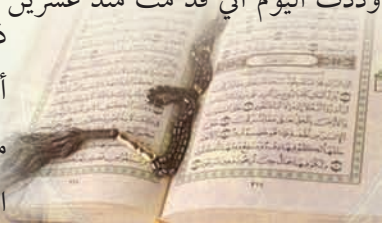

موجز في التعريف بالسور

سورة الأنفال

سورةُ الأنفال مدنيّة، إلا سبعُ آيات نزلت في مكّة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ..﴾ الأنفال:٣٠، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾ الأنفال:٣٦. والسورة خمسٌ وسبعون آية، وألف وخمس وتسعون كلمة، وخمسة آلاف وثمانون حرفاً. ما يلي إطلالةٌ على بعض ما ورد في التفاسير ومصنّفات الحديث حول هذه السورة المباركة أو آياتٍ منها.

«تفسير نور الثقلين»:

١ – في (تفسير العياشي): عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَن قرأ براءة والأنفال في كلّ شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة مع شيعته حتى يفرغ الناس من الحساب**».

٢ – في كتاب (ثواب الأعمال) بإسناده إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من قرأ سورة الأنفال وسورة براءة في كلّ شهر لم يدخله النفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام**».

٣ – في (مجمع البيان): عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيعٌ له وشاهدٌ يوم القيامة أنّه بريءٌ من النفاق، وأُعطيَ من الأجر بعدد كلّ منافق ومنافقة في دار الدنيا عشر حسنات، ومُحِيَ عنه عشر سيئات، ورُفِعَ له عشر درجات، وكان العرش وحَمَلَتُه يُصلّون عليه أيام حياته في الدنيا**».

٤ – في (أصول الكافي) "..." عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**الأنفال ما لم يُوجَف عليه بِخَيْلٍ ولا ركاب، أو قوم صالحوا، أو قوم أعطوا بأيديهم، وكلّ أرض خَرِبة وبطون الأوديّة، فهو لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء**».

٥ – عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**نحن قومٌ فَرَضَ الله طاعتنا، لنا الأنفالُ ولنا صفوُ المال**».

«الميزان في تفسير القرآن»:

سياق الآيات في السورة يعطي أنها مدنيّة نزلت بعد وقعة بدر، وهي تقصّ بعض أخبار بدر، وتذكر مسائل متفرّقة تتعلّق بالجهاد والغنائم والأنفال ونحوها، وأموراً أخرى تتعلّق بالهجرة، وبها تُختَتم السورة.

«الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزَل»:

في الآيات الخمس والسبعين التي تتكوّن منها سورة الأنفال أُثيرت مباحث مهمّة جداً، ففي مستهلّها إشارة إلى قسم مهمّ من المسائل الماليّة من جملتها الأنفال والغنائم التي يُعدّ كلٌّ منها دعامة لبيت المال. كما تضمّنت هذه السورة مباحث أخرى منها: صفاتُ المؤمنين الصادقين وما يمتازون به، قصةُ معركة بدر (وهي أول مواجهة مسلّحة بين المسلمين وأعدائهم، وما تضمّنت من أحداث عجيبة تُلهم العِبَر)، بعضُ أحكام الجهاد ووظائف المسلمين إزاء هجوم العدوّ المتواصل، ما جرى للنبيّ صلى الله عليه وآله في ليلته التاريخيّة "ليلة المبيت"، حالُ المشركين وخرافاتهم قبل الإسلام، ضعفُ المسلمين وعجزهم بادئ الأمر ثم تقويتهم ببركة الإسلام، حُكمُ الخُمس وكيفيّة تقسيمه، وجوبُ الاستعداد "العسكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ" للجهاد في كلّ زمان ومكان، رَجحانُ قوى المسلمين المعنوية على عدوّهم بالرغم من قلّة عددهم ظاهراً، حكمُ أسرى الحرب وكيفيّة معاملتهم، المهاجرون والذين لم يهاجروا، مواجهةُ المنافقين وطريقة التعرّف عليهم. وأخيراً نجد في هذه السورة سلسلة مسائل أخرى أخلاقيّة واجتماعيّة بنّاءة. فلا غرابة أن نقرأ بعض الروايات الواردة في شأن هذه السورة وفضيلتها، كالرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من قرأ سورة الأنفال وبراءة في كلّ شهر لم يدخله نفاقٌ أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين حقّاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب**».

***

أجواء هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله

الآية الثلاثون من سورة الأنفال عن أجواء هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله كما يلي: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ الانفال:٣٠.

❋ قال الشيخ الأميني في (الغدير): قال أبو جعفر الإسكافي كما في (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد: حديثُ الفراش قد ثبت

بالتواتر فلا يجحدُه إلا مجنونٌ أو غيرُ مخالطٍ لأهل الملّة، وقد روى المفسّرون كلّهم: إنّ قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ..﴾البقرة:٢٠٧، نزلت في عليّ ليلة المبيت على الفراش. وروى الثعلبي في تفسيره: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا أراد الهجرة إلى المدينة، خلف عليّ بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وأداء الودايع التي كانت عنده، وأمرَه ـ ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار ـ أن ينام على فراشه وقال له: اتّشِحْ ببُردي الحضرميّ الأخضر، ونَمْ على فراشي، فإنّه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله تعالى. ففعل ذلك عليّ عليه السلام، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: «إني آخيتُ بينكما وجعلت عُمْرَ أحدكما أطول من الآخر، فأيّكما يُؤثِرُ صاحبه بالحياة؟»، فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله تعالى إليهما: «أفلا كنتما مثلَ عليّ بن أبي طالب؟ آخيتُ بينه وبين محمّد، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويُؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه». فنزلا، فكان جبرئيل عند رأسه، وميكائيل عند رِجليه، وجبرئيل ينادي: بَخٍ بَخٍ، مَن مثلُك يا عليّ؟ يُباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة. فأنزل الله على رسوله وهو مُتوجِّهٌ إلى المدينة في شأن عليّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ..﴾.

«قال ابن عباس: أنشدني أمير المؤمنين شعراً قاله في تلك الليلة:

وقيتُ بنفسي خيرَ من وطئ الحصا ... وأكْرَمَ خلقٍ طافَ بالبيتِ والحجْرِ
وبتُّ أراعي منهم ما يسوءني ... وقد صَبَرَتْ نفسي على القتل والأسرِ
وبات رسولُ الله في الغار آمناً ... وما زال في حفظ الإله وفي الستر».

تربة الحسين عليه السلام ودعاء «ليلة المَبيت»

عمل للأمن من الخوف يجمع بين دعاء أمير المؤمنين ليلة المبيت و بين تربة الإمام الحسين عليه السلام

ليلة هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، دعا عليٌّ عليه السلام بدعاء يُعرف بـ «دعاء ليلة المبيت»، وهو مرويٌّ عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان عملٍ للأمن من الخوف، واللافت في هذا العمل، أنّه يجمع بين دعاء مرتبط بسلامة رسول الله صلى الله عليه وآله وبين تربة الإمام الحسين عليه السلام، المرتبطة بسلامة الإسلام من التحريف وسلامة الأجيال من الضلال، وتُقدِّمُ الرواية عن الصادق عليه السلام هذا العمل الجامع بين سرّين كعلاجٍ للأمن من كلّ خوف. وإليك نصّ الرواية: لمّا ورد الإمام الصادق عليه السلام إلى العراق، اجتمع إليه الناس، فقالوا: يا مولانا، تربة قبر مولانا الحسين شفاءٌ من كلّ داء، وهل هي أمانٌ من كلّ خوف؟ فقال عليه السلام: «**نعم، إذا أراد أحدكم أن تكون أماناً من كلّ خوف، فليأخذ السبحة من تربته، ويدعو دعاء ليلة المبيت على الفراش ثلاث مرّات، وهو**: (أَمْسَيْتُ اللّٰهُمَّ مُعْتَصِماً بِذِمامِكَ المَنيعِ الَّذي لا يُطاوَلُ وَلا يُحاوَلُ، مِنْ شَرِّ كُلِّ غاشِمٍ وَطارِقٍ، مِنْ سائِرِ مَنْ خَلَقْتَ وَما خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ الصّامِتِ وَالنّاطِقِ، فِي جُنَّةٍ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ بِلِباسِ سابِغَةِ حَصينَةٍ، وَلاءِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكَ عليهم السلام، مُحْتَجِباً مِنْ كُلِّ قاصِدٍ لِي إِلى أَذِيَّةٍ بِجِدارِ حَصينِ الإِخْلاصِ فِي الإِعْتِرافِ بِحَقِّهِمْ وَالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِهِمْ، مُوقِناً أَنَّ الحَقَّ لَهُمْ وَمَعَهُمْ وَمِنْهُمْ وَفِيهِمْ وَبِهِمْ، أُوالِي مَنْ وَالَوا وَأُجانِبُ مَنْ جانَبُوا، فَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَعِذْنِي اللّٰهُمَّ بِهِمْ مِنْ شَرِّ كُلِّ ما أَتَّقِيهِ، يا عَظِيمُ حَجَزْتَ الأَعادِي عَنِّي بِبَدِيعِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ، ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾)، **ثمّ يقبّل السبحة ويضعها على عينيه، ويقول**:

(اللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هذِهِ التُّرْبَةِ المُبارَكَةِ، وَبِحَقِّ صاحِبِها، وَبِحَقِّ جَدِّهِ وَأَبِيهِ، وَبِحَقِّ أُمِّهِ وَأَخِيهِ، وَبِحَقِّ وُلْدِهِ الطّاهِرِينَ، اجْعَلْها شِفاءً مِنْ كُلِّ داءٍ، وَأَماناً مِنْ كُلِّ خَوْفٍ، وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ سُوءٍ).

ثمّ يضعها في جيبه، فإنْ فعل ذلك في الغَداة فلا يزال في أمانٍ حتى العشاء، وإنْ فعل ذلك في العشاء فلا يزال في أمان الله حتى الغداة».

تنبيه: [عند قراءة الدعاء في الصباح، تقول: (أصبحتُ اللّهمّ.. الخ)، وعند حمل السُبحة تُراعى حرمتُها حقّ الرعاية، لخطورة التساهل بتربة سيّد الشهداء عليه السلام].

وبعدما أورد السيد ابن طاوس هذه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في كتابه (فلاح السائل) قال عليه الرحمة: وتقول أيضاً: «أللّهمّ ما قَصُرَتْ عنه مسألتي، وعَجزَتْ عنه قُوَّتي، ولم تَبْلُغْهُ فِطْنَتي، [و] تعلمُ فيه صلاح أمر آخرتي ودنياي، فصلِّ على محمّد وآل محمّد، وافعله بي بـ لا إله إلاّ أنت، بحقِّ لا إله إلا أنت، برحمتك في عافية، سبحان الله ربِّ العزّة عمّا يَصِفون، وسلامٌ على المُرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين».

من دروس المركز الإسلامي